الصحوة

ـ ماذا تعمل في بلادك؟

قالتها دون تفكير لمجرد تبديد الصمت فأجابها بسرعة دون افتعال:

ـ مدير شركة نفطية.

اضطربت قليلًا أمام هذه الإجابة السهلة وتلألأت عيناها ببريق ما، فراحت تحاول ابتلاع ريقها لتلفظ سؤالها التالي:

ـ وكم مرتبك؟

كان يلاحقها بطرف عينه فدفع إليها بالإجابة مرة واحدة وبلا تحفظ وتمهل:

ـ ألفان من الدينارات ...

ازداد البريق في عينيها كأن الأرقام المئوية التي سمعتها أضافت إلى هذا البريق أضعافًا نتيجة عملية ضرب سريعة آلية وانفرجت شفتاها تستجمع الكلمات.

ـ يا له من مبلغ لابد أن السعادة ملء جيوبك وجفونك.

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة وافتعال ابتسامة واضحة أما هو فقد خرج من حيز المكان وشرد بفكره بعيدًا همس ربما لنفسه أكثر مما قصد أن يخاطبها:

ـ من أين تأتي لي السعادة وأنا لم أعرف لها طعمًا أو معنى في حياتي.

انحسر فستانها أكثر من فوق الركبة نقلت معنى الإغراء إلى عينيها تلقائيًا، امتدت يده تصب مزيدًا من النبيذ في كأسها، حدق أكثر في وجهها الذي يبدو خلف سحاب دخان سيجارة، كأنه مجموعة من ألوان الطيف لتباين المساحيق فوقه، ولكن حملقة عينيه لم تفلح في سحبه بعيدًا عن أفكاره وهمومه التي تعايشه منذ سنوات، لم تكد تغيب أبدًا عنه لحظة واحدة، حتى وهو في أهنأ لحظاته مع جليسته هذه التي لم يتعرف إليها إلا في هذه الشقة منذ أيام قلائل، تصور وهو يدخلها إنه فارق على بابها كل همومه وأحزانه، ولكنها ها هي

تلح عليه في لحظات أنها لحظات النسيان الكثيرون يشربون لينسوا، أما هو فإن الشرب يزيده تذكرًا يقوي ذاكرته، يعود به إلى أيام من المفروض أن يطويها طي النسيان ويحكم الزمن وحده، إنها أيام طفولته وصباه.

عندما كان والده يوفر له كل احتياجاته، نصائح والده تمر حرفيًا كأنها المسجلة على الشريط التي تديره الآن بائعة الهوى التي تجلس أمامه، لكنه خيب ظنون والده صار يهرب من المدرسة كأنه طفل صغير، تكرر هروبه ورسوبه وأحس بالارتياح عندما قررت المدرسة فصله نهائيًا.

ولم يكد ينال من ارتياحه إلا نظرات الحسرة وخيبة الأمل التي كانت تشع من عيني أبيه، أما أمه فقد بدا وكأن الأمر سواءٌ بالنسبة لها، فأخذ يستدرجها حتى سمع منها العبارات التي كان يحتاجها، كلمات قليلة من بين كلام كثير، لكنها كانت كافية لأن تجعله يتغلب على القلق الذي زرعته نظرات والده في أعماقه، في الحقيقة كان في مسيس الحاجة للتغلب

على هذا الشرخ في محيط البيت، ليواجه كسرًا يوشك أن يدمر حياته ويعصف بكيانه.

إن دقات قلبه مصدره البيت المجاور، زهرة بالتحديد إنه يحبها وقد عذبه حبها وضايقه، وأثقله بأضعاف ما فعلت فيه المدرسة، ومع ذلك ظل يقترب من بيتها في الوقت الذي يبتعد فيه عن باب المدرسة، تمنى أن يظل محدقًا في عينيها السوداويين ووجهها الأبيض الجميل، أضعاف أمنيته في أن يعفيه الله من معاناة النظر في وجوه المدرسين، طالما أحس أن القلم الثقيل الظل خفيف في يده، وهو يشرع في الكتابة إليها لكنه وفي كل مرة وعبر ارتعاشة القلم في يده، تبرز أمامه الحقيقة المرة أنه فاشل بلا مستقبل، وزهرة معبودته مثل غيرها من الفتيات تريد أن يكون لها رجل له مستقبل، إنها لا تكاد تحس به ومجرد إحساسها به يعتبر طيشًا ونزقًا، إنها لم تحاول مجرد النظر إليه أو التحديق فيه، مثلما يحدق الإنسان في أي شيء عرضًا يمر به، إسراف في عدم الإحساس أو

القسوة، لعل حبها له يبني الكثير يضعه على طريق المستقبل من جديد، يمده بطاقة بدفقة حياة يجتاز بها كل العراقيل.

ولكنها لم تفعل لعله استعجل، لا لطالما طارد خيالها من فوق الأسطح وعبر النوافذ الضيقة والشرفات، وفي الطريق كل طريق عرفته، ولأنه صار حارسًا بسيطًا في إحدى الشركات قد تكون سخرت منه، وهو يرتدي بذلة الحارس الخاصة بالوظيفة، وعند هذا الحد اهتز رأسه عدة مرات بعصبية، وكأنه يريد أن يدفع عنه المزيد من المعاناة المتجددة، بائعة الهوى التي تجالسه غمزت بعينيها ودار إبهامها وسبابتها في حركة مفهومة، فعكست ملامحه بعض الضيق، لكنه أسرع دونما تفكير، يخترق طريقه إلى حيث يوجد معطفه الذي يحمل حافظة نقوده، والتي دس فيها كل راتبه، بل وتحصل على سلفة ثلاثة أشهر مقدمًا من عمله، حاول والده نصيحته بأن يتزوج، ولكن ممن يتزوج، وكل ما معه لا يكفي إشباعًا لهم والد أي عروس، فضلًا عن أحلامه التي لم تطاوعه في

قبول أو تصور غير زهرة شريكة لحياته، امتدت يده تعبث في جيب بدلته، لكن مظروفًا وقع في يده هَمَّ بأن يعيده لولا أن وجده مغلقًا، فتحه في تمهل جرت عيناه على السطور:

حبيبي:

ـ فتحي أقولها لك بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى لأول مرة ولعلك تستغرب تجاهلي لك فقد كان مجرد اختبار لمعرفة مدى صدقك في حبك لي، ولعلك تتساءل كيف استطعت أن أضع هذه الرسالة القصيرة، في جيب جاكتك التي جاءتني بها السيدة والدتك لأخيطه لك، فخلسة وضعت رسالتي هذه فيه، لعلها تصلك وهاأنذا أبوح بحبي لك، وأتمنى عودتك سالمًا أنا في انتظارك.

زهرة.

أحس بالفرح يغمره لأول مرة، وهو لا يكاد يصدق عينيه، هذه القاسية التي كان يتمنى منها ولو ابتسامة، ها هي تعترف له بحبها بل وتمنحه قلبها، كم هو في غاية الغبطة

والانشراح، كان بالأمس تائهًا ضائعًا، واليوم شعر بالوعي يعود إليه، اقتربت منه بائعة الهوى أحس بأنفاسها المضطربة، لم يعد يحس برغبة إليها، أو بأي شهوة نحوها.

ـ إن كنت لا تريدني أعطني أجري.

ـ شعر بدمه يغلي وشرر الغضب يتطاير من عينيه، ومد لها ورقة المائة جنيه مصري وهو يصرخ فيها:

ـ هيا اغربي عن وجهي ....

♦ وفي اليوم التالي كان يودع رفيقه ويضع حقيبته في سيارة الأجرة، بينما رفيقه يرنو إليه في دهشة واستغراب، يلوح له وقد أقلعت به السيارة وأيقظته تلك الرسالة من سباته العميق، فهو في شوق لمحبوبته الجميلة وحنين لأهله ووطنه.